الانتاج الأزهرى

للأستاذ عبد العزيز محمد عيسى

« إن الأزهر إذا أصلح كان بثقافته أهدى إلى تربيتنا من أية جامعة . » (الزيات)

[افتتاحية الرسالة فى عامها التاسع]

عادت الرسالة الغراء إلى العناية بالشئون الأزهرية على دأبها ، بعد ما عادت الحياة إلى الأزهر أثر إجازته الطويلة ، وبعد ما اطمأن الأساتذة والطلاب إلى موضوعاتهم وساروا فيها شوطاً ليس باليسير . وعدت أسأم مع الكاتبين ، وألق بدلوى فى الدلاء ، ولسنا نبتغى من وراء ذلك — علم الله — إلا الخير لهذا المعهد المبارك الذى نرجو أن ينال من الإصلاح ما يتمناه المحبون المخلصون .

وفى النفس حاجات ، وللقلب خفقات ، إذا ما ذكر إصلاح الأزهر وجرى على الألسن . ولكننا نقف فى كلمتنا اليوم عند الحديث عن الإنتاج الأزهرى لتردده على أقلام الكاتبين

فقد نفمط الأزهر حقه إذا وقفنا بالإنتاج عند ما كان من جماعة كبار العلماء وجعلنا ذلك الأساس الذى يبنى عليه التقدير والاعتراف بشخصية الأزهر العلمية . ونحن لا نؤمن بأن إنتاجهم يمثل هذه الشخصية ، وإنما يمثل شخصياتهم أنفسهم ومدرسة تلقوا عنها وعقيدة فى التحصيل والتأليف درجوا وما زالوا عليها

وسواء لدينا أنشر إنتاجهم أم لم ينشر فرسائل كثير منهم على ما نعتقد صورة أريد بها تبرير الرسميات ، وأغلب الظن أنها لا تعدو فى الجودة رسائل المتخصصين إن لم تكن الأخيرة أفضل من بعضها . فمن الذنب الكبير إذن أن نجعل إنتاج هذه الجماعة دليلاً على شخصية الأزهر العلمية

وفى الأزهر غير هذه الجماعة طائفة مهما قل عددها لها استقلال فى البحث والتفكير ، ولها حرية فى الرأى والنقد وأبحاث قوية نشرت وتداولتها الأيدى ، وهذه الطائفة من غير شك — لاعتراف الجميع بها — تمثل الأزهر الناهض من الناحية الفكرية ، وهى بحق أولى أن تدل على شخصية الأزهر العلمية

قد يكون من الإحراج أن نقصر الإنتاج على إبداء رأى خاص فى مشكلة من مشاكل العلم . ولو أننا فعلنا ذلك لكان كل ما نسميه الآن إنتاجاً للأزهر وما عدا الأزهر غير إنتاج ؛ أو لكانت كثرته الغالبة على هذا الوصف . ولم لا نعد الإنتاج المدرسى إنتاجاً متى كان قائماً على الشخصية والتصويب أو التخطئة لما للعقل فيه مجال ، والمناقشة للموروث والتعقيب عليه ؟ أليس ذلك هو الاستقلال فى التفكير والإعلان الرأى الخاص بعد الدرس والبحث ، وإذن ففى الأزهر إنتاج قل أو كثر

هناك فرق بين الإنتاج والقدرة عليه وإن كان أحدهما لازماً لصاحبه وأثراً من آثاره . ومما لا شك فيه أن هذه القدرة على الانتاج موفورة لدى الكثير من رجال الأزهر وإن لم يظهر الانتاج الفعلى إلا من قليل منهم

وإذا أنت سألت عن السبب فى إحجام الكثير عن الانتاج فلا يستطيع منصف أن يجيبك إلا بأن فقدان التشجيع والاغراء من ناحية القائمين بالأمر فى الأزهر هو السبب الوحيد لذلك . فهم قد رأوا إخواناً لهم حاولوا أن ينتجوا بل أظهروا سوراً من إنتاجهم كان معترفاً بها ؛ ولكن أحداً من الرجال الرسميين لم يقل لهم إنكم أحسنتم ، ولم يشجعهم بكلمة تجعلهم يدأبون على مثل هذا العمل أو تجعل غيرهم يسير فى طريقهم . فخير لهم إذن ألا يسيروا فى طريق لا يحمد السائرون فيها

إن الأزهر يطلب من علمائه أن يكونوا منتجين ، وأن يعرضوا علمهم لناشئة الجيل الجديد فى صور تلائم جيلهم ، ولكنه لا يأخذ بأسباب ذلك . فهو مثلاً لا يأخذ بسنة وزارة المعارف فيعلن عن حاجته إلى الكتب اللازمة لتحقيق مناهجه ، ويشترط فيها ما يشترط من نظم وتوجيهات ، ويجعل ذلك كل عام أو عامين أو أكثر ليكون له من وراء ثروة طائلة من الإنتاج سواء فيما يقرره من ذلك أو فيما ينشره أصحابه على الناس ليوازنوا بينه وبين ما اختير

إنه لو فعل ذلك لزرع فى نفوس علمائه الاستقلال فى الفكر والجهر بالرأى والصراحة فى الحق — وهى أهم مقومات الإنتاج الصحيح — ولقضى على فكرة اعتقاد عجز العلماء عن مسايرة الحياة الجديدة وعن الخروج عما درسوه من كتب وعبارات

أليس من العيب أن يظل الأزهر إلى الآن يقرأ فى سنتيه الأولى والثانية الثانويتين كتباً فى البلاغة لمعاصرين من غير

الأزهريين وفيه مائة من المتخصصين فى البلاغة كل واحد منهم قادر على أن يخرج كتاباً مثلها إن لم يكن أفضل منها !

لا تقل أيها القارئ بعد ذلك مالهم لا يؤلفون ، فإن عدم التشجيع كما قدمنا وعدم الإغراء بتقرير الكتاب أو بشراء حق التأليف أو ما إلى ذلك هو الذى صرفهم فكان سبباً مهماً فى قلة الإنتاج ؛ ولو أن هذا الباب فتح لجاءت كتب كثيرة ولنشرت أبحاث ينبغى أن تحسب فى إنتاج الأزهريين كما حسب مثلها لغيرهم

أو ليس من العيب كذلك أن يقرر الأزهر فى أقسامه الثانوية كلها كتاب فى تاريخ أدب اللغة لفظته وزارة المعارف منذ زمن طويل ؛ وفيه كذلك مائة أو يزيدون من المتخصصين فى أدب اللغة ! وليس ذلك لعجزهم عن إخراج أفضل منه ، فقد برهنوا على انتفاء ذلك عنهم ، ولكن لاعتبارات أخرى على نحو الاعتبارات التى أشار إليها صديقى الأستاذ المدنى فى مقاله « السياسة التوجيهية فى الأزهر » عدد الرسالة ٣٩٣

ففيم كان يضيع هؤلاء وأمثالهم سنى تخصصهم إذا لم يستطع أحدهم أن يؤلف كتاباً يرضى به منهج الدراسة ويعلن به رأيه فى هذه الموضوعات الأدبية مثلاً التى لا ينبغى أن يعتقد الإنسان فيها رأى غيره ، ولا أن يلقن الطلاب فيها عبارات كتاب بعينه

ذلك عيب واضح يشكو منه الأساتذة والطلاب جميعاً . ونحن إذ ندل عليه نرجو أن يلتفت إليه القائمون بالأمر فى الأزهر فيعملوا على تلافيه وإبعاده حتى لا يظل الأزهر كلاً على غيره فيما تخصص فيه أبناؤه وعطلوا أنفسهم سنوات للعناية به ومعرفة مناهج بحثه

ونستطيع أن نقول مثل ذلك فى كثير من مواد الدراسة ، فإنها تقرأ فى كتب لا صلة لها بالعقلية الحاضرة ولا بالأسلوب المألوف . ومن الخير كل الخير أن يعدل عنها إلى ما يوافق ذلك وأن يوسع المجال للمستطيعين وتعطى الفرصة لهم . ولست أقصد بذلك — طبعاً — إلى عيب هذه المواد والتنقيص من قيمة كتبها . ولكنى أعتقد أنها جعلت لزمان مضى ، فمن الجائز أن يصلح بعضها لزماننا ، وأن يعارض بعضها الآخر معه فلنبق على ما يصلح ولندع ما عداه . فإننا إن لم نفعل ذلك صدق علينا أننا نعيش فى عصر غير العصر الذى يعيش فيه الناس

على أنه مما يعوق الانتاج الأزهرى ويقف فى سبيله أن الدراسة فى الأزهر ما تزال تلتزم « طريقة الكتاب » . فأنا كمدرس حريص على أن أهضم عباراته وأساليبه : السائغ منها والملتوى ، وأفهم ذلك الطلاب كلمة كلمة وحرفاً حرفاً ما له ضرورة وما ليس له ضرورة ، لأنه فى الكتاب المقرر ، والطالب أمامى يهتم بذلك ويوليه عنايته ، لأنه يرى شبح الامتحان مخيفاً ، ويرى أنه لا ينجيه منه إلا أن يفهم كلمات الكتاب ، وكلما تمثل له هذا الشبح فى أثناء (الحصة) حقق ودقق وأخذ وأعطى وفكر وقدر

وعلى فرض أنه لا بد من ذلك فى بعض المواد ، فإننا لا نعدل فى بعضها الآخر إلى « طريقة الموضوع » ، لنمكن للمدرس من الجمع والتحصيل والإبقاء والإلغاء ، فيظهر بذلك شخصيته ويظهر إنتاجه واستقلال فكره . ألا إننا لو فعلنا ذلك لكنا محسنين إلى الأزهر ، إلى علمائه وطلابه ، وإلى العصر الذى نعيش فيه

إن الدراسة على هذا النحو فرصة من الفرص الجيدة التى تمهد السبيل لظهور الانتاج الأزهرى والانتفاع به ، فإذا لم تتح هذه الفرصة لعلمائه ، ففى من يقع إثم التعويق عنها ؟

لا ينبغى أن نسرف فى التشاؤم ولا أن نقول : إن مدرس الموضوع لم يخلق ، ففى الأزهر كثير عندهم هذا الاستعداد ، فليكن عملهم بدء الغيث . فإن أصابوا فذلك ما نرجوه ، وإلا كانوا النواة الحسنة لمن يجىء بعدهم من إخوانهم وأبنائهم . وإذا نحن انتظرنا بالدراسة الموضوعية إلى أن يخلق مدرس الموضوع ولم نعمل على خلقه وتكوينه ، تقطعت بنا السبل وخلفتنا القافلة ولم نصل إلى ما نريد

إن أنسب الأوقات لإعلان هذه الآراء والمناداة بها هو ذلك الوقت الذى يدير الشئون فيه شيخ هو خير شيوخ الأزهر فيمن رأينا

ونحن إذ نجهر بذلك وننادى به فإنما نعبر عن رأى الكثيرين من العلماء ، وبخاصة ذووا الصراحة منهم ، ونحتذى فى الوقت نفسه خطة المصلح الأكبر الإمام المراغى التى رسمها فى أول خطاب له فى الجامع الأزهر حين عاد شيخاً له للمرة الثانية

فهل يجد هذا النداء المتواضع من سميع ؟

عبد العزيز محمد عيسى
مدرس بمعهد القاهرة